



منذ أن استخلف الله الإنسان في الأرض، وأقامه فيها لعبادته وإعمار أرضه، سخر له كل ما فيها لكي يفكر ويستنتاج، ويعمل كل ما من شأنه أن ينفعه ويجعل من الأرض مستقرًا صالحًا للعيش الطيب، وتتابعت الرسل والرسالات على الأرض لكي يظل الإنسان مرتبطاً بالله، حاكماً بشرعه ونجهه الذي ارتضاه له، وتتنوعت وتعاقبت الأمم كذلك في سلم الحضارات، فمنها حضارات عاشت وأمدت البشرية بأنماط من الآثار المتباعدة، ومنها ما خلده التاريخ لحسنها ونفعها للبشرية، ومنها ما ذهب أدراج الرياح، ونسى التاريخ وأسقطه من حسابه فطواه التسليان.

ولأننا أمة لها من الحضارة والتميز ما يضعها في قمة سلم الأمم، بفضل عقيدتها البناءة، وشريعتها المرنّة، ومنهجيتها في التفكير الإبداعي القائم على تحرير العقل وإطلاق القدرات الفاعلة، والبحث الدائم على العمل الجاد الدؤوب لكل ما فيه مصلحة الإنسان، دون النظر إلى ما بين البشر من التباين العقائدي والاجتماعي والعرقي، وذلك لأن الإنسان في هذه الحضارة مكرم كإنسان، فإنه لمن المؤسف أن يتراجع أداؤنا، ويضعف دورنا، ولكننا أبدأ لن تناشي وأبدأ لن تغيب شمسنا بإذن الله وبما أن الدوام والاستمرارية على نفس الحال من القوة أو الضعف من المحال، فإن ما يعتري الأمة المسلمة اليوم من التراجع الحضاري أمر طبيعي ناجم عن عدة عوامل، لعل أبرزها تهميش دور الدين في حياتنا العامة والخاصة، وانشغالنا بالفرعيات والجزئيات والمسائل الخلافية، إضافة إلى تكالب الأمم علينا، وإشغالنا بحروب دائمة منهكة ومتتابعة، مما جعل جهد الأمة موزعاً على أكثر من صعيد، إلا أن هذا لا يستدعي التوقف المتهاون عن العمل الدائب في مشروع الأمة النهضوي، والسعى إلى استرجاع كرسي الأستاذية، الذي ظل ولقرون طوال ملكاً لها توارثه جيلاً بعد جيل، كما أنه لا يعني أبداً أن نتيح المجال للمحبطين والناعبين على الخراب، أولئك الذين يبثون في أجيالنا ثقافة الانهزام وروح اليأس والاستسلام لثقافة ومنهجية شرعة الآخر، وهو ما يسعى إليه ويبتغيه كل أعداء الأمة، وهو ما نلمسه أيضاً من تكالب الأمم على أمة الإسلام لإيهانها وإفناه فكرها ومقومات نهضتها. وإنه لمن الخطأ الشنيع أن ترتفع هنا وهناك أصوات تندب حضارتنا، وتنعي

وجودنا، وتضعننا جنباً إلى جنب مع الحضارات البائدة والأمم المندثرة، وهي دعوات تتباين أهدافها وتتعدد مصادرها، فمنها تلك الأصوات المشفقة التي ظنت أن الأمة في طريقها إلى الفناء الحضاري، كنتيجة حتمية لبعضنا عن تعاليم الله، وعدم أخذنا بأسباب التقدم، وضعف التأثير في الآخر، بل ومسارعنا إلى السير في ركابه، وهي معطيات من وجهة نظر المشفقين تنذر بالضياع إن لم تكن ضياعاً حقيقياً، وهنا تبدأ الآراء المتشائمة والتفسيرات المحبطة والدعوات المستسلمة لتصل إلى أجيال الأمة جيلاً فجيلاً، وتناقل الأمة الفكر الانهزامي كواقع لا مفر منه، ووضع يصعب التخلص منه، وتنطلق الأفكار الاستسلامية في دعوة صريحة للأمة أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان فلنجلس وننتظر ما يأتي به المستقبل، والذي هو أيضاً من نفس وجهة النظر قاتم ولا يبشر بخير، ومن هناك تنطلق أصوات الظلام تفج وتتناثر سموها في أوساط الأمة التي تعرف أنها ضعفت وتدرك أنها تراجعت وتعي أن واقعها لا يسرّ ولا يرضي، فتسمع أصواتاً هنا تلقي باللائمة على الدين ككل، لكي يتسلّى لها الوصول إلى نقطة اتهام الإسلام بالتحديد، كعقيدة وشريعة، بالخلاف الحضاري الذي وصلت إليه الأمة، فالدين هنا أفيون الشعوب حيناً، ومشاعر صبيانية حيناً آخر، وإيديولوجياً متلاعبة بمشاعر الناس، وتحجر على أفكارهم، وهو في أحسن حالاته قيد اضطهادي يحجم دور المرأة، ويقيّد مشاعرها، و يجعلها جارية مملوكة للرجل، وهو أيضاً سبب الحروب، ومثير الفتن بينبني آدم كلّهم في الشرق والغرب، وهذا كلّه يتم وفق برامج محددة الهدف خبيثة، واسعة الأساليب متعدّتها ومتطوريتها، بل لربما وضعت كل الإمكانات في خدمة برنامجها المدمر للأمة، وفي حرب ناعمة حيناً وشرسة أحياناً، يهاجم الإسلام ويغزى في قلوب أبنائه وأفكارهم، ويُسعي أعداؤه إلى تدميره بكل قيمه ورقّيه وواقعته وإيجابياته، فالحرب الحقد لا توقف، والوسائل المؤثرة لا تنفك تسفر عن كل جديد وخيث، كل هذا ونحن نسهم في مسح أدمغة أبنائنا، ولا نضع لأنفسنا منهجاً يساعدهم على التعرف إلى مقومات حضارتهم وروعة تاريخ أمتهم ورحابة دينهم وقدرتهم على استيعاب الكون بما فيه ومن فيه، كل ذلك في نسق إنساني وحضاري وعقائدي راق وبناء ومتقدّم.

حقاً يكفينا تباكي على ما فات، واستسلام للوهن والخور، ورضا بكل ما يقذفه لنا الغرب والشرق من تفاهة الفكر والحطاط الأخلاق واستهانة بالدين، ولنرکّز على استعادة ثقة أجيالنا بالمستقبل، واتخاذهم من دين الله سبباً ووسيلة للرقة والعزّة، ومن ماضينا البديع وصنّاعه المبدعين قدوة ومثلاً، ولنحي في الأمة روح الحرية والكرامة التي لم تتحقق لأمة من الأمم كما تحققت لأمة الإسلام، تلك الروح التي جعلت البسطاء يتصدرون للخلافة فينزلون على رأيهم الصائب دون أن يشعر الخليفة بالصغر والمهانة، ولنزل ركام الوهم الذي غرسه فينا أعداؤنا، حين أوهمنا بأن شمسنا أفلت وأن زماننا ولّ وأن حضارتنا محض وهم زال ولن يعود، ولنتحدث إلى أمتنا والدنيا بأسرها بلسان الحق الواضح الجلي، أليست هذه مآذننا التي تصبح في كل بقاع الأرض بالوحدانية؟ أليست هذه الجموع التي تدخل جماعات ووحدات في الإسلام كل يوم هي راقد غزير وشاهد حيّ على بقائنا ونمائنا وحياتنا المعطاءة للإنسانية؟

يا أمة الإسلام وارثة أنت للأرض ومنصورة أنت في الأرض ومقيمة أنت لشرع الله في الأرض، فلا تقدّمك الكبوة، ولا ترثّنك الهفوة، ولا تستضعفنك المرجفون، ولا يثنيك عن خوض غمار المعالي وهن الموهنين.